

سلطة الأبعاد الدلالية للتنغيم في الأحاديث النبوية الشريفة (قراءة وصفية تداولية)

د.سيروان أنور مجيد
جامعة أربيل التقنية - قسم تقنيات الإعلام
أربيل- العراق

م.م. جودت أنور مجيد الهمني
كلية العلوم الإسلامية - جامعة صلاح الدين
أربيل - العراق

الخلاصة

إن التنغيم له سلطان كبير في تغيير خارطة الدلالية للعملية الكلامية، وإن الاقتضاء الخطابي ليكون فيصلاً في رسم تلك اللوحة الموسيقية، وذلك حسب السياق الذي يريده الخطاب اللغوي والسيرورة الكلامية، إذ بالتنغيم يحدد مجريات الكلام وآليات التواصل اللساني، وبما أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) هو من كان أفصح العرب لساناً؛ لذا هو كان عارفاً بمكننات التنغيم، فالوقوف على ومضات من أحاديثه الكريمة من الجانب التنغيمي ليرشدنا إلى الدلالة الحقيقية للتنغيمية للحيثيات الخطابية، وسلطة تلك الأبعاد دلالية، وذلك من خلال قراءة وصفية في ظلال المعطيات التداولية، إذ أن الوقوف على هذه الأحاديث وفق المعطيات التداولية يهدينا إلى إيجاد تلك السلطة الدلالية في تغيير مجريات الخطاب بشكلها السوي. وهذا البحث يريد أن يدلوا بدلوهم في هذا الإطار؛ أملا في أن يكون جهوده بادرة جيدة للتظير في هذا الحقل اللغوي داخل بحبوحة الأحاديث النبوية الشريفة.

The Power of the Semantic Dimensions of the Speech in the Prophetic Traditions (A Descriptive reading)

ABSTRACT

Intonation has a big role to build a real road map to the meaning of conversation. Mostly, it clears the meaning in different ways and illustrates the way of speech. The Prophet Muhammad (Peace be upon.) is the best speaker in Arabic standard language, and he was very smart in sorts of using intonation. So, in this paper we will deal the authority of intonation in Profit's speech through the descriptive analytic theory and some concept of pragmatic theory, in order to get the real meaning through the profit's speech. At the end, we hope this paper be a good step in this kind of research to both fields: (Linguistics field and Islamic religious studies).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الجامع الكلم، وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد: فقبل الخوض في صلب البحث فينبغي بيان مشكلته وأهميته وحدوده والمنهج المتبع فيه، كالآتي:

مشكلة البحث

قلة الدراسات اللغوية على الأحاديث النبوية؛ سيما تلك الأحاديث التي تتضمن أسلوب الاستفهام، والدراسات التي أجريت عليها حسب حدود بحثنا أغلبها تتمحور في الجوانب اللغوية العامة، ولم يدرس في ضوء المعطيات التداولية وإبراز تلك السلطة الدلالية التي تحيط بفضاء التنغيم.

أهمية البحث

إذا وقفنا على الأحاديث النبوية الشريفة من خلال موسيقى التنغيم ووفق المعطيات الدلالية والتداولية تضيء جوانب مشرقة للخفايا الدلالية التي تحيط بماهيات الحديث، وكيف أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) أبدع في استعمال موسيقى التنغيم.

حدود البحث

يقتصر البحث على تلك الأحاديث التي تتضمن أسلوب الاستفهام وتلك الانزياحات الأسلوبية التي تراوده خلال السياق الاستعمالي.

منهجية البحث

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، إذ يقوم بوصف التنغيم؛ ثم أخذ تلك الأحاديث وتحليلها في ضوء هذا المنهج.

خطة البحث

ويتكون البحث من مبحثين، وتحت كلٍ منهما مطالب. كالآتي:

المبحث الأول

مفهوم التنغيم ووصف قول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) لوصف التنغيمات المصاحبة

المطلب الأول: مفهوم التنغيم

وقبل أن ندلو بدلونا إلى سلطة الأبعاد الدلالية للتنغيم كان لا بد لنا من الوقوف على الدلالة المعجمية والاصطلاحية للتنغيم.

التنغيم لغة: فقد جاء في معجم القاموس المحيط بأن: "تنغيم (اسم)، الجمع: تنغيمات، مصدر نَغَم، التَّنْغِيمُ فِي اللَّحْنِ: الإِنْشَادُ، التَّطْرِيْبُ فِيهِ. فِي (العلوم اللغوية) توالي درجات صوتية مختلفة أثناء النطق" (1) أما اصطلاحاً: فهو "تتابعات مطردة من مختلف أنواع الدرجات الصوتية على جملة كاملة أو أجزاء متتابعة، وهو وصف للجملة وأجزاء الجملة وليست للكلمات المختلفة المنعزلة" (2)، كما وأنه "الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة" (3)؛ فضلاً عن "تنوع الأصوات بين الارتفاع والانخفاض في أثناء الكلام" (3).

1 - معجم القاموس المحيط: للفيروز ابادي مادة (نغم)، ط دار الحديث، القاهرة، 1429هـ-2008م، ومعجم المعاني الجامع مادة (نغم) معجم الكتروني.

هذا، وإن الجاحظ وابن جنّي أدركا التنغيم ورسمها معالمها في ترسيم الدلالة المرادة من خلال الكلام المنطوق، وإن لم يتطرقا إليه بالتسمية، إذ ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن الصوت هو آلة اللفظ والجوهر، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف وحسن الإشارة باليد والرأس، ومن حُسن البيان باللسان مع الذي يكون بالإشارة من الدل والشكل والتفنن والتثني⁽⁴⁾. أما ابن جنّي فقد لوح دور التنغيم في باب التعجب استحال خبراً، وذلك "قولك: مررت برجل أي رجل، فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل ولست مستفهماً، وكذلك مررت برجل أيما رجل؛ لأن ما زائدة وإنما كان ذلك؛ لأن أصل الاستفهام الخبر والتعجب ضرب من الخبر"⁽⁵⁾.

ومن هنا، فإن ابن جنّي تفتّن تداوليّة مفهوم التنغيم بمعناه المعاصر، على الرغم من أنه لم يذكر كلمة التنغيم، وهذا ما نقرأ جرّاء حديثه على حذف الصفة، قائلاً: "وقد حُذفت الصفة ودلت الحال عليها"، وذلك فيما حكاها صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليلاً، وهم يريدون: ليل طويل. وكان هذا إنما حُذفت فيه الصفة لِمَا دَلَّ من الحال على موضعها، وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملت، وذلك أن تكون في مدح إنسان والتناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فزيد في قوة اللفظ (بالله) هذه الكلمة، وتتمكّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سأله فوجدناه إنساناً، إذ تمكّن الصوت بإنسان وتقّمه؛ فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك، وكذلك إن ذمته ووصفته بالضيق قلت: سأله وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو جراً أو مبخلاً أو نحو ذلك"⁽⁶⁾.

نلاحظ من خلال تحليل قول ابن جنّي إنه استخدم مصطلحات صوتيّة تدلّ على معنى التنغيم: فالتطويح كما ورد في اللسان: من طوح به ذهب هنا وهناك، وأمّا التطريح فهو من طرح الشيء إذا طوّله ورفع وأعلاه⁽⁷⁾، والتفخيم إعطاء الصوت قيمة صوتيّة مفخمة؛ فهذه المصطلحات لها تعلق بالصوت ودرجته أثناء النطق به.

هذا وأنّ التطويح والتطريح والتفخيم قد تجسّدت في ظاهرة الحذف، وهذه الظاهرة لم تكن غائبة في بطون أمهات التراث اللغوي، بل احتلت مكانة مهمّة من بين الموضوعات التي عالجوها، ذلك لأنّ سلطة التنغيم في الحذف لها سلطة دلالية ومقامات تداولية يجب أن تطابق المقام، ويؤكّد صاحب ملاك التأويل (ت708هـ) إنّ "إيجاز الكلام يقتضيه حذف ما يفهم من الكلام اختصاراً"⁽⁸⁾ إذا ما تهيات تلك الأرضية المشتركة بين الباث والمتلقي، وعملت القرائن اللسانية كالنبر والتنغيم والتلوينات الصوتية عملها داخل المحيط اللساني المكوّن من الملفوظات السابقة للجملة أو اللاحقة بها⁽⁹⁾. وإذا لم تهيات تلك الأرضية التنغيميّة لا يكون ذلك الحذف محموداً كما يذهب إليه ابن قتيبة (ت276هـ)، قائلاً: "ولكنه ليس بمحمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكلّ مقام مقال، ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرّده الله تعالى في القرآن"⁽¹⁰⁾.

- 1 - دراسة الصوت اللغوي. د أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط4، 2006: 194.
- 2 - اللغة العربية مبناها ومعناها، د تمام حسان، دار الثقافة الدار البيضاء 1994 : 226194.
- 3 - المرجع السابق: 225.
- 4 - البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بحر.. تحقيق: شهاب الدين، موفق.. ط2. بيروت: دار الكتب العلمية: 2003م، 79/ 1.
- 5 - الخصائص، ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، تحقيق: هندأوي، عبد الحميد.. ط2، بيروت: دار الكتب العلمية: 1424هـ- 2003م، 269/3.
- 6 - المرجع السابق: ج 2 370-371.
- 7 - لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، طبعة جديدة مصححة وملونة، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبدالوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسه التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ = 1997م، مادة طرح ومادة طوح، 528/2- 535.
- 8 - ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل: 181/1.
- 9 - طرق التضمن الدلالي والتداولي في اللغة العربية وآليات الاستدلال. 1/ 113.
- 10 - أدب الكاتب، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. تعليق: محمد بهجة الأثري، السيد محمد شكري الألويسي.. بغداد: ط1، المكتبة العربية، 1314هـ: 15.

- **التنغيم عند المحدثين:** ويعد (إبراهيم أنيس) أول من أدخل مصطلح التنغيم في الدراسات اللغوية العربية المعاصرة، وسماه ((موسيقى الكلام))⁽¹⁾، وذكر "أن الإنسان حين ينطق بلغته لا يتبع درجة صوتية واحدة في النطق بجميع الأصوات؛ فالأصوات التي يتكون منها المقطع الواحد، تختلف في درجة الصوت وكذلك الكلمات قد تختلف فيها... ويمكن أن نسمي نظام توالي درجات الصوت بالنغم الموسيقية"⁽²⁾، أما (تمام حسان) فيصف التنغيم في الكلام "بارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام"⁽³⁾، ويستطرد قائلاً: إنه "تتابعات مطردة من مختلف أنواع الدرجات الصوتية على جملة كاملة، أو أجزاء متتابعة وهو وصف للجمل وأجزاء الجمل وليس للكلمات المختلفة المنزلة" (4) بمعنى أنه هناك تفاوت بين مقاطع الكلام، ويحدث الصعود والهبوط خلال الدائرة الكلامية، وهذه العملية تصنع التنغيم.

ومن هنا، فالتنغيم "تغييرات موسيقية تتناوب الصوت من صعود إلى هبوط، أو من انخفاض إلى ارتفاع، تحصل في كلامنا وأحاديثنا لغاية وهدف، وذلك حسب المشاعر والأحاسيس التي تنتابنا من رضى و غضب وياس وأمل وتأثر ولا مبالاة، وإعجاب واستفهام وشك و يقين، ونفي أو إثبات، فنستعين بهذا التغيير النغمي الذي يقوم بدور كبير في التفريق بين الجمل؛ فنغمة الاستفهام تختلف عن نغمة الإخبار، ونغمة النفي تختلف عن نغمة الإثبات"⁽⁵⁾. وهذا ما أشار إليه الدكتور سمير سنيّة بقوله: قد تكون النغمة نغمة تفاعل ويسمّيها بعضهم النغمة الوجدانية، وقد تكون تشكك أو ضجر أو ياس أو استسلام، أو غير ذلك مما له علاقة بسيكولوجية المتكلم.

ومعطوفاً على ما سبق، فإن الصعود والهبوط الذي ينتاب العملية الكلامية هو هوية الولادة التنغيمية، وجراء العملية يوّد التنغيم حزمة من الموسيقى الكلامية؛ سواء أكان تلك الموسيقى موسيقية حزن لتدل على السأم أو الضجر أو التأفف وتكره الأذن سماعه، وبذلك توّد الرسالة السلبية للمخاطب من لدن المتكلم، أو موسيقية الاستراحة أو التطريب لتلهو أذن المتلقي، وخلالها يريد المتكلم إرسال رسالة إيجابية؛ قصد مشاطرة المخاطب وخلق الاستراتيجية التضامنية التي يريد الوصول إليها مع المتلقي، وبذلك يسهل آليات الوصول للمخاطب، ومن ثم يفلح في إنجاح تلك الرسالة الكلامية التي بنوي الوصول إليها إلى جمهور المتلقين. وهذا ليس بغريب عن التنغيم فالتنغيم كثيراً ما يكون فيصلاً في تفسير قضايا نحوية وتركيبية، و صرفية وصوتية ودلالية في اللغة العربية من خلال تلك الموسيقى المتصدرة أثناء التنغيم؛ سيّما حال إدراج مستوياته ووظائفه المختلفة في التعبير عن تداولية بعض المعاني النفسية والنحوية.

وعليه، فإن دراسة التنغيم تعدّ "من أدقّ جوانب الدراسة اللغوية وأكثرها خطورة، بسبب تعدد النغمات في البيئة اللغوية أو اللهجية الواحدة، وارتباط هذه النغمات بالمواقف النفسية، وارتباطها بالثقافة والتراث والمستوى الاجتماعي"، فتغيّر التنغيم يرتبط "ارتباطاً أساسياً بالتغيرات التي تطرأ على ترّد نغمة الأساس أثناء الكلام"⁽⁶⁾.

ومن هنا، فإذا أردنا بيان الجانب الدلالي للكلام وتداولية معالمه علينا أن نشخص الجانب الصوتي، الذي يرى نفسه في التنغيم، فسلطة دلالة التنغيم حاضرة حتى في الصلاة، فالإمام العارف بمفردات التنغيم أو القراءات أو من كان يندوّق ويعرف العربية الفصيحة نلتمس التنغيم حال صلاته، فيتنغيمه للتركيب (الله أكبر) يتحكّم بالمأموم، ويشعر المأموم بأن الأمام في التحية الفلانية، فعادة ما يشير النغمة الصاعدة إلى أنّ الإمام يقوم للفتحة، وإن كانت النغمة مستوية أو على وتيرة واحدة يشعر المأموم بأنّ الإمام يريد الجلوس للتشهد، وكذلك الحال في نغمة (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ففي الأول يكون الإمام نغمته هادئة ولا يزيد من حدة صوته، في حين في التسليمة الثانية يرفع صوته أكثر وتكون النغمة صاعدة، ووقتها يحسّ المأموم بأن الإمام قد أنهى صلاته ووقتها هو يبادر تسليمه، وإذا لم

1 - دلالة الألفاظ، أنيس، إبراهيم، ط4، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1984: 175.

2 - المرجع السابق.

3 - الخصائص، ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، تحقيق: هنداي، عبد الحميد.. ط2. بيروت: دار الكتب العلمية، 1424 هـ- 2003 م: 224..

4 - المرجع السابق ص 224.

5 - التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: 229.

6 - التنغيم ودلالته العربية، يوسف عبد الله الجوارنة، WWW.Islampoort.COM .

يكن الإمام عارفاً بأبجديات موسيقى التنغيم غالباً ما تتعكس الدلالة لدى المأموم ويقعون في هفوات الترتيب الصلاتي.

المطلب الثاني: وصف قول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) لوصف التنغيمات المصاحبة

ويضاف إلى هذا، وصف قول الرسول الكريم، مع الحرص على وصف التنغيمات المصاحبة، لكي يصل الرسالة النبوية وفق ما يقصده النبي (صلى الله عليه وسلم)، والأمثلة على ذلك زاخرة في بطون أمهات كتب الحديث والسيرة النبوية، ولعل من أبرزها: بلغ النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الزبير إمساكاً فأخذ بعمامته فجذبها إليه، وقال: جلس وقد كان متكئاً، فأشار بالسبابة الوسطى، وأحمرَّ وجهه، بزق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال، وأشاح بوجهه أو شبك أصابعه، أو أشار بأصبعيه، فجاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مسرعاً قد حضره النفس وقد حسر عن ركبتيه، فقال: ... وهلمَّ جرّاً، فإنك لا ترى في هذه الكلمات المعدودة حركات تصويرية أو كلاماً مجرداً من تلك الألفاظ فحسب، بل هناك "حركات نفسية في هذه الألفاظ، ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب وكثرت جوامع كلمه (صلى الله عليه وسلم)"⁽¹⁾ وهذه المقترضيات التي تصاحب الحديث يؤكدتها التداوليون؛ قصد نجاعة الخطاب، وانجرار المخاطب ليعايشك بمجمل ما تحاول ترجمة هدفك، ولا تضع وسيلة إلا وتستثمرها في إيصال رسالتك الخطابية.

ومن هنا، تتجلى أهمية التنغيم وسلطته الدلالية والتداولية في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ سيما أثناء الخطب؛ ولذلك يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: "يستدل به على أنه يستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقاً للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب وترهيب"، ويشاطر الرأي القرطبي رحمه الله تعالى - حينما يقول في وصف خطبة الرسول الكريم، قائلاً: "كونه -صلى الله عليه وسلم- تحمراً عيناه، ويعلو صوته، ويشتد غضبه في حال خطبته، كان هذا منه في أحوال. وهذا مشعر بأن الواعظ حقه أن يكون منه في وعظه بحسب الفصل الذي يتكلم فيه ما يطابقه؛ حتى لا يأتي بالشيء وضده ظاهر عليه. وأما اشتداد غضبه فيحتمل أن يكون عند نهيهِ عن أمر خولف فيه، أو يريد أن صفته صفة الغضبان."⁽²⁾

ومهما يكن من أمر، فإن التنغيم يعين على تحديد دلالة الجملة وله أثر بارز في كثير من المسائل النحوية حتى إن أفاض النحويون أن اللفظ في حقيقته راجع إلى المعنى أخذ منه بسبب متين، وأن المعنى أشيع من اللفظ وأسير حكماً.⁽³⁾

وعليه، شد أبو الفتح على قيمة التلوينات الصوتية وجعلها في مستوى دلالات المقام، فأما إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال فإن حذفها لا يجوز، ومن ذلك ما يروى في الحديث (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)⁽⁴⁾، أي لا صلاة كاملة أو فاضلة، ونحو ذلك، وقد خالف في ذلك من لا يعد خلفه خلافاً⁽⁵⁾. ومهما يكن من أمر فإن التنغيم يعين على تحديد دلالة الجملة وله أثر بارز في كثير من المسائل النحوية حتى إن أفاض النحويون أن اللفظ في حقيقته راجع إلى المعنى أخذ منه بسبب متين، وأن المعنى أشيع من اللفظ وأسير حكماً⁽⁶⁾. وقد روى الفراء (ت 207هـ) عن بعضهم أنه سمعه يقول: (أكلت لحماً شاه)، وهو يريد (لحم شاه)، فأشبع الفتحة، فأنشأ عنها

1 - مسند أحمد بن حنبل: 4 / 210، رقم الحديث: 17876، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني الوفاة: 430، الطبعة: الرابعة: دار الكتاب العربي - بيروت - 1405 : 10 / 216.

2 - صحيح مسلم بشرح النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الوفاة: 676، الطبعة الثانية: دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1392، 6 / 156.

3 - مسند أحمد بن حنبل: 1 / 110-111.

4 - سنن الدار قطني: علي بن عمر أبو الحسن الدار قطني البيهقي الوفاة: 385، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني: دار المعرفة - بيروت - 1386 - 1966، كتاب الصلاة، باب الحث لجار المسجد على الصلاة فيه إلا من عذر، رقم الحديث: 1 / 419، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال في نقد الرجال: هذا حديث ضعيف، ميزان الاعتدال في نقد الرجال: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي الوفاة: 748، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود: دار الكتب العلمية - بيروت - 1995، الطبعة: الأولى، 6 / 170.

5 - مسند أحمد بن حنبل، 2 / 370-382.

6 - المصدر السابق، 1 / 110-111.

ألفاً. وهو اعتراض بين المضاف والمضاف إليه على ضيق الوقت وقصره بينهما⁽¹⁾، ومن ذلك قراءة الأعرج (ت 117 هـ) عن أبي الزناد ((بثلاثة آلاف))، أو (خمسة آلاف) بسكون الهاء، وقد ذكر فيما قبل، فهذا تقوية وعذر لقراءة أبي سعيد⁽²⁾.

المبحث الثاني

نماذج من الأحاديث النبوية الشريفة للتطبيق

لو أمعنا النظر في الأحاديث النبوية الشريفة لنرى أنّ هناك نماذج زاخرة تؤدّي التنغيم دلالتها وسلطانها التداولية؛ إذ به تعرف تنوع الدلالات المرادة من ماورائيات الحديث ومقتضيات الحديث، ومن هنا نقف على طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، فلو أخذنا أسلوب الاستفهام، ذلك الأسلوب اللغوي الذي يُطلب به الفهم، وله الصدارة في الكلام؛ كون التنغيم في هذا الأسلوب يؤدّي دوراً كبيراً في حسم الدلالة؛ وإضافة اللامسات الدلالية لفضاء ذلك النص، وتميّز تلك التراكيب التي تحتوي على أدوات استفهام وليست استفهامية، وتلك التي لا تحتويها والسياق يشير إلى الاستفهام فيها.

المطلب الأول: انزياح أسلوب الاستفهام إلى التقرير

فلو أخذنا الهمزة في باب الاستفهام؛ لما تتمتع بالأصالة الرصينة في أسلوب الاستفهام مقارنة بأخواتها من الأدوات، نرى أن التنغيم قد يؤدّي دوره في ورود هذه الأداة بدلالته الأصلية أم انزاحت إلى دلالة أخرى ففي هذه الأحاديث جاءت الهمزة على حقيقته.

- أصلى الناس⁽³⁾؟ (،) أصدق نو اليمين⁽⁴⁾؟ (،) أشعرت أنّ الله أخبت جاءت الهمزة مع الفعل الماضي والفاعل،
- وفي هذه الأحاديث: "أوجب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزائنه فينقل طعامه فإنما تخزن لهم ضرع مواشيهم أطعماتهم فلا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه"⁽⁵⁾؟
- جاءت الهمزة مع الفعل المضارع، مع فاعل،
- جاءت الهمزة مع حرف العطف، مع الفعل الماضي (أو فعلت؟) (،) أفنلت من أمه⁽⁶⁾؟
- وفي هذه الأحاديث) البرّ أردن به⁽⁷⁾ذا؟(،) أكل ولدك نخلت هذا⁽¹⁾؟ قد أدغمت (همزة الوصل) مع (همزة) الاستفهام في الجملة الأولى؛ أي قلبت (الهمزة) الثانية إلى جنس حركة ما قبلها

- 1 - المصدر نفسه، 258/1.
- 2 - المصدر نفسه، 166-165/1.
- 3 - صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري الوفاة: 261 ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام، رقم الحديث: 418، 1 / 311.
- 4 - الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي الوفاة: 256 ، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - 1407 - 1987 ، الطبعة: الثالثة ، كتاب الجماعة والإمامة، باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس، رقم الحديث: 682، 1 / 252.
- 5 - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المساقاة الشرب ،باب لا تحلب ماشية أحد بغير إذن ، رقم الحديث: 2303، 2 / 858.
- 6 - المصدر السابق نفسه: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم الحديث: 5703، 5 / 2247.
- 7 - سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي الوفاة: 458 ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - 1414 - 1994 ، كتاب الصيام، باب المرأة تعتكف بإذن زوجها ومن خرج منه قبل تمامه إذا لم يكن الاعتكاف واجبا، رقم الحديث: 8383، 4 / 322، وقال محمد بن يوسف في "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد"

وموازيًا مع ذلك، فقد تخرج الهمزة من دلالتها الأصلية إلى التقرير، وتجعل الاستفهام تقريرياً، فهذا الانزياح يعطي زخماً دلاليًا آخر إلى الدلالة الأصلية، كما وتخلق الالتفات الأسلوبية؛ ذلك أن الانزياح يجعل القارئ أن يلتفت من أسلوب إلى آخر، ويخلق عنده نوعاً من اللذة والمواصلة في متابعة الدائرة الكلامية؛ فبالانزياح يتجسد مبادئ (غرايس) أكثر متانة؛ سيما إذا ما تمكّن المتكلم من استثمار آليات التقديم، وحينها يترجم مبادئ الكمية والحكمة والطريقة بنصاعة أكثر؛ لتزيد من اللحمة التداولية، ويزيد من بهاء اللغة في واقع الاستعمال.

ومن هنا، فهذه الانزياحات الاستفهامية تحتل مركزاً مهماً من بين المستويات الدلالية في علم الاستعمال اللغوي، كما في هذا الحديث ألم تكن طافت معكن؟ إذ دخلت همزة الاستفهام على أداة النفي (لم) التي جزمت الفعل المضارع الناقص وانزاحت دلالته الأصلية.

وفي هذه الأمثلة جاءت الهمزة مع (لم)، ثم تلاها الفعل المضارع، وانزاحت إلى دلالة التقرير والإثبات، فالاستفهام التقريري عادة ما ينطبع بداليتين، أولهما: التحقيق والتثبيت، والآخر: حمل المخاطب على الإقرار بما يعرف، وإلجأه إليه وطلب اعترافه⁽²⁾، كما في قول الرسول الكريم ألم أرسل إليك رسولا؟، ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم.

هذا، وإن انزياح أسلوب الاستفهام إلى التقرير زاحر في الأحاديث النبوية؛ فهذه الانزياحات تخلق فضاءً نقائياً وتطويرية موسيقية تحاكي السياقات التواصلية، وتجعل المحاور ذة تفاعلات أكثر بين الباث والمتلقي، بحيث يجعل من المحاور كتلة كلامية واحدة؛ سيما إذا ما كان الطرفين على مستوى عال بروح اللغة؛ وهذا لا يستغرب في هذا الجيل، فالرسول الكريم هو أفصح العرب لساناً وجيلهم أفصح الأجيال في العربية فصاحة وذوقاً بحيثياتها، وحتى أن القرآن نزلت بلغة هذا الجيل، ولذا نرى هذه السياقات زاحرة في القرآن الكريم، فالتنغيم في هذه الماخرات السياقية له سلطة كبيرة في تفسير الجمل وإعطاء اللمسات الدلالية الأخيرة للعملية الكلامية؛ كما وأنه يقوم بالتوزيع التحليلي للنص الواحد أو المحاور الواحدة، ولربما بنعمة أخرى تغير دلالة هذه الجملة إلى دلالة أخرى أو من أسلوب إلى آخر، ففي قوله تعالى: {قَالُوا جَزَأُوهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَأُوهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [يوسف: 75]، نرى أن التنغيم هو الذي يوزع الدلالة إلى جملتين، لكن تختلف عناصر كل منها، فقد تكون الجملة الأولى: جزاؤه من وجد في رحله، والتنغيم هنا إثبات. والجملة الثانية: فهو جزاؤه، والتنغيم هنا إثبات. وقد تكون الجملة الأولى هي: جزاؤه ...؟ والتنغيم تنغيم استفهام. إلا أن الجملة الثانية: مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَأُوهُ، نرى أن التنغيم فيها تنغيم إثبات، ويسوغ تنغيم الاستفهام في (فَمَا)؟ وقوعها بعد قوله تعالى: {قَالُوا فَمَا جَزَأُوهُ إِنْ كُنْتُمْ كَادِبِينَ} [يوسف: 74]. والاستفهام فيها واضح بأداته، ولاشك أن تنغيم جملة (قالوا جزاؤه)، بنعمة الاستفهام، وجملة (مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَأُوهُ)، بنعمة التقرير والإخبار، سيقرب معنى الآيات الكريمة إلى الأذهان ويكشف عن مضمونها⁽³⁾.

ومن هنا، فإن التنغيم فيما سبق، بالإضافة إلى إعطاء اللمسات الأسلوبية من خلال الانزياحات الخطابية، فإنه قد رصنت سلطة المرتكزات الدلالية؛ فضلاً عن التداولية بشكل أنصع، ذلك أن اللغة أساس رصين من المنطلق التداولي، إذ هي "أداة من أقوى الأدوات التي يستخدمها المخاطب لتبليغ مقاصده إلى المخاطب والتأثير فيه بحسب هذه المقاصد، وبقدر ما تكون الأسباب اللغوية مألوفة للمخاطب وموصولة بزاده في الممارسة اللغوية، فهماً وعملاً يكون التبليغ أفيد والتأثير أشد"⁽⁴⁾.

وفي الأحاديث النبوية يحتل الحذف المتمثل في الدراسات المعاصرة بالانزياح الاختزالي موقعاً كبيراً، ذلك أن الاختزال اللغوي يفتح دائرة التخيلات والقراءات مفتوحة للمتلقى، ويجعله يشارك حتى انتهاء العملية الخطابية، بل

: سنده حسن، ينظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي الوفاة: 942هـ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض: دار الكتب العلمية - بيروت - 1414هـ، الطبعة: الأولى، 8 / 322.

1 - أخرج البخاري في صحيحه: كتاب الهبة وفضلها، باب الهبة للولد وإذا أعطى بضعن ولده شيئاً لم، رقم الحديث: 2446، 2 / 913.

2 - شروح التلخيص: مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح؛ لابن يعقوب المغربي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح؛ لبهاء الدين السبكي، نشر أدب الحوزة، 2 / 307. رابط الموضوع http://www.alukah.net/literature_language/0/91247/#ixzz5KN2ve6AF.

3 - علم الدلالة، د. عمر أحمد مختار، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، 1982، ص13.

4 - تجديد المنهج في تقويم التراث: 245.

ويجعله عنصراً شديداً للتواصل مع الباحث؛ سيما في النغمات المصاحبة والمرافقة للسيرورة الخطابية؛ لكيلا يفقد تلك المفاجئات التي يطررها الباحث عليه في السياق التخاطبي، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن الانزياح الاختزالي هو محاكاة إلى طبيعة كلام العربي الفصيح، حسبما يقرّه ابن جني في خصائصه، حينما يقول: "واعلم أنّ العرب إلى الإيجاز أميل، وعن الإكثار أبعد، ألا ترى أنّها في حال إطالتها وتكريرها مؤذنة باستكراه تلك الحال وملاها"⁽¹⁾. ولعل الأمثلة زاخرة في الأحاديث النبوية للحذف؛ إلا أننا لشاعتها نقتصر على نموذجين في أسلوب الاستفهام من صحيح البخاري، وهنا أيضاً أن النغمة المرافقة التي تصاحب العملية الكلامية هي التي ترشد السامع إلى الانزياح الاختزالي، ففي قوله (صلى الله عليه وسلم): **نَامَ الْعُلَيْمُ**⁽²⁾؟. فمن خلال السياق وطريقة الإلقاء نرى أن الرسول الكريم قصد الاستفهام، وأنّ الأداة محذوف وهي الهمزة على الفعل الماضي، والاستفهام من هذا السياق وحسب ماجريات النص يؤول إلى التصديق، وتقدير الكلام هنا: (أنام العليم)، واهذا النوع الاستفهامي جاء أكثر من مرة في صحيح البخاري.

وموازية للفعل الماضي، فإنّ الفعل المضارع يشاطره في الحذف، وأنّ النغمة المصاحبة هي التي ترشدنا إلى الحذف، كما وأنّ حذف الهمزة في فعل المضارع نسبته أكثر من الفعل الماضي في صحيح البخاري، إذ جاء قوله (صلى الله عليه وسلم): **تَشْهَدُ أَيُّ رَسُولٍ اللَّهِ**⁽³⁾؟، **تَعْلَمُ مِنْ تُخَاطَبُ مُنْذُ ثَلَاثِ**⁽⁴⁾؟. وحينما يختلى الأداة في أسلوب الاستفهام عادة ما يؤوله النحويين بالهمزة، لما تتمتع الهمزة بالصدارة الاستفهامية، وأن جميع الأداة الاستفهامية تبع لها، والمستفهم عنه هو الفعل المضارع (تشهد، وتعلم)، ومن الملاحظ في بيئة النموذجين أنّ الاستفهام قصد بها التصديق.

ففي هذين النموذجين، نرى أنّ التنغيم المقامي قد اختلى الفعل المضارع من الأداة؛ ليعطي مجالاً أوسع من الأفكار، والمعاني للمتلقّي، ويمكن اللغة من التطور، كما يسمح للمبدع من مراوغة اللغة والانزياح عن قوانينها المعيارية التي تحاول ضبط الخروج عن المعتاد المألوف والمعتاد من اللغة⁽⁵⁾؛ بغية التحقيق الاختزالي واستبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن أو أن يوسع أو أن يعدّل بواسطة العبارات الناقصة⁽⁶⁾. ومن هنا، ندخل ونتعاشق مع عالم الأسلوبية؛ ذلك لأن الانزياح الاختزالي إذا ما حاكى السياق والمقام اللغوي يولد عنصر المفاجئة والتلذذ اللغوي عند المتلقّي، وهذا هو ما يناشده علم الأسلوب اللغوي، ويوافق عليه علم الدلالة والاستعمال اللغوي.

المطلب الثاني: انزياح أسلوب الاستفهام إلى النفي الصريح

كما وأنّ هناك أحاديث كثيرة ينزاح أسلوب الاستفهام إلى النفي الصريح، وهذه الاستراتيجية الخطابية في الأحاديث النبوية لم تأت جزافاً، وإنما استوجبت تناسق الوظائف (الدلالية والتركييبية والتداولية) في فضاء الانزياح الأسلوبية؛ قصد تفاعل الباحث والمتلقّي، "لتحديد الرتبة وفق سلمية تكون فيها الغلبة للوظائف التداولية على الوظائف التركيبية والوظائف الدلالية، وما تحدده الرتبة بالدرجة الأولى هي الوظائف التداولية"⁽⁷⁾. إذ تكون هذه العملية التواصلية في

- 1 - الخصائص، لابن جني: 261/1.
- 2 - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب السّمَر في العُلْم، رقم الحديث: 117، 1، 55.
- 3 - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات...، رقم الحديث: 1289، 1، 454.
- 4 - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازة المؤكّل فهو جائز وإن أقرضه إلى أجل مُسمّى جاز، رقم الحديث: 2، 812/2187.
- 5 - النقد والإعجاز، دراسة، محمد تحريشي،... اتحاد كتاب العرب-دمشق، 2004، ومتاح على الموقع الآتي: www.awu-dam.org/book/04/study04/33736.
- 6 - النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند،... ترجمة: د. تمام حسان... ط2. القاهرة: عالم الكتب، 2007م: 301، وينظر: الحذف والتقدير في النحو العربي: 199-287، والنظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية: 61-103. فاعلية علم اللغة النصي في تحليل معهود الخطاب العربي، رقائق صحيح البخاري نموذجاً: 49-51.
- 7 - استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية الشهري، عبد الهادي بن ظافر... ط1. ليبيا: دار الكتب الجديدة المتحدة، 2004: 141.

غاية الدقة، ويتطلب حساً لغوياً مدرباً ولطفاً عالياً في الذوق الأدبي والتواصل، ليتلمع من هنا ما للانزياح الأسلوبى من دور هام في تحقيق الإبداع اللغوي¹، فلو لم يكن ذلك الإبداع ومراعاة للسياقات التخاطبية لكان الوصول إلى الطرف الأعلى من البلاغة هيناً، ولأصبح كلام الناس لونا واحداً وطعماً واحداً، ولكن الأمر يرجع إلى حسن الاختيار من هذه المتنوعات بحسب ما يناسب الأحوال والمقامات⁽²⁾. وهذه التلويحات في الانزياحات لا تستبعد من الذي أفصح العرب لساناً، وأن موسيقى التنعيم التي تراود جوار الخطاب في ريحانة الأحاديث النبوية هو الفيصل في إضفاء للمسلمات الدلالية النهائية.

ومن أمثلة هذا الحديث، قوله (صلى الله عليه وسلم): أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات؟ هل يبقى من درنه شيء؟⁽³⁾، فقوله: هل يبقى من درنه شيء؟ فهنا انزاح أسلوب الاستفهام إلى النفي، وأن موسيقى التنعيم التي تحيط فضاء الحديث كقيلة في معرفة هذا الانزياح، وقد قصد منه النفي، وإنما أثر التعبير عنه بأسلوب الاستفهام؛ "حتماً لهم على التفكير والتدبر في أثر الوضوء والصلوات الخمس، والدرن المنفي بقاؤه قد يكون مادياً، فيكون الأمر خاصاً بالتفكير في آثار الوضوء، وقد يكون معنوياً، والمراد الذنوب التي يغسلها الوضوء وتمحوها الصلاة؛ ولذلك عقب - صلى الله عليه وسلم - على إقرارهم بالنفي بقوله: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا⁽⁴⁾، وسرُّ عدوله - بالاختيار - إلى أسلوب الاستفهام عن النفي الصريح، أن النفي الصريح حكم قد يصدقونه، ويجوز ألا يصدقونه، أو على الأقل لا يابهن له، لكن إجراءه على ألسنتهم إقراراً بنفيه؛ أي إقرارهم هم أنفسهم بأن من كان أمامه نهرٌ يغتسل منه خمس مرات، لا يبقى من درنه شيء، فيه مزيد تنبيه وتذكير لهم بأن هذا الذي لا ثمارون فيه، إنما هو مثل الصلوات الخمس التي يمحو الله بهن الخطايا، فلا ينبغي أن تغفلوا عن الصلوات الخمس، فإقرارهم بالنفي أوقع في نفوسهم وأبلغ من أن يعبر عنه - صلى الله عليه وسلم - بالنفي ابتداءً، والاستفهام الأول: ((أرأيتم؟)) القصد منه الأمر".

وإذا ما خرجت نغمة الاستفهام إلى الضغط على آخر المفردة؛ سيما المقطع المنبور فيها تخرج دلالة الاستفهام إلى النفي؛ وهذا الضغط لا يكون بعيداً عن أداة الاستفهام نفسها، ووقتها لا تكون نغمة الجملة مستوية بل تكون النغمة صاعدة مضغوطة لتحاكي السياق والمقام الخطابي، وهذا ما يتضح جلياً في قول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في معرض حكايته عن رب العزة سبحانه، سائلاً اليهود والنصارى: (هل ظلمتكم من حَقِّكم شيئاً)⁽⁵⁾، وجاء هذا الحديث في سياق الرد على اعتراضهم، وهو أن يعمل اليهود إلى نصف النهار، والنصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر، ويعمل المسلمون من صلاة العصر إلى صلاة المغرب على ضعف أجر ما لكل فريق منهم، فقالوا غاضبين: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً، قال الله: هل ظلمتكم من حَقِّكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنه فضلي، أعطيه من شئت، فمن خلال تداولية التنعيم يتضح أن أسلوب الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير، وبما أن المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي، ولذلك كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداءً.

وعليه، ففي فضاء هذا السياق التواصلى أراد الله سبحانه وتعالى تقرير نفي الظلم عنهم، بدليل إجابتهم بـ"لا"، وبدليل صحة حلول "ما" مكان "هل". أي، أنه قال: ما ظلمتكم من حَقِّكم شيئاً، وهذا ما يماثل الأسلوب القرآني، كقوله تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَظُنُّونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9]، فمن خلال التنعيم يلحظ عليه أنه خرج

225-اللغة، فندريس، جوزيف.. ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص.. القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م: 188.

225-اللغة، فندريس، جوزيف.. ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص.. القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م: 188.

2 - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني ط3. سورية: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 2010.: 188/1.

3 - أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة ثمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، رقم الحديث: 667، 462/1.

4 - نفس المصدر السابق، وأخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلاة، باب الصلوات الخمس كفاً، رقم الحديث: 505، 197/.

5 - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى صلاة العصر، رقم الحديث: 2149، 792/2.

من طابعه الاستفهامي إلى الطابع النفي الإنكاري، والسامع العارف بقوانين اللغة والمتذوق بعالم الموسيقىة يرسم له الصورة النفي الإنكاري بصورة أوضح، هذه اللوحة تكون ملامحه أبهى عنده، وهذا الأمر معمول حتى في اللغات العربية العامية الدارجة، أو اللغة العربية المعاصرة، فحينما نقول لأطفال (كيف تنام في الساعة الثانية عشرة ليلاً...؟!؟)، ففي هذه الأداة المستخدمة هي الاستفهام؛ إلا أن تداولية السياق والكلمات المرسومة في جغرافية الجمل ترشدنا إلى الانزياح الأسلوبي على وجه التعجب والإنكار فهذا الاستفهام لا يحتاج إلى إجابة، وإنما الغرض منه النفي، والسامع يعرف من ذلك، ويدركه من تنغيم الجملة، لقد نقل تنغيم الجملة من معنى الاستفهام إلى معنى النفي، وهو ما نستخدمه كثيراً في لغتنا المعاصرة، فنقول مثلاً: (كيف تعادي أباك .. ! ؟) بلفظ الاستفهام، ونحن نريد التعجب والإنكار، وهو ما يؤديه تنغيم الجملة.

المطلب الثالث: انزياح أسلوب الاستفهام إلى الأمر

هذا، وقد انزاح أسلوب الاستفهام إلى أسلوب الأمر في أحاديث أخرى كثيرة لو تمنعنا السيرة النبوية، والمخاطب يعرف الانزياح من خلال السياق والنغمة المرافقة له؛ أما القارئ فيستشقه من خلال الفضاء العام لبيئة النص وماجريات أمورهما.

وانطلاقاً مما سبق، ففي حديث يرويه الإمام البخاري لنا، في قوله (صلى الله عليه وسلم): **فهل أنتم صادقون**⁽¹⁾، فالمقصدية هنا لا تكمن في سؤال اليهود على الحقيقة، بل القصد أمرهم بالصدق، واختار التعبير عن الأمر بالاستفهام؛ "حنا لهم على الصدق، وتلطفاً معهم؛ كي لا يكذبوا، فربما لو أمرهم لنفروا منه، فالأمر المباشر بالصدق كأن يقول: "صدقوني إن سألتم عن كذا"، مُشعراً بعدم ثقة الأمر في المأمور؛ ولذا أمره بأن يصدق، ثم في التعبير عن الأمر بالاستفهام بـ"هل" مع الجملة الاسمية أفاد الدلالة على بلوغ الغاية في الاهتمام والعناية بأن يصدقوه فيما يسألهم عنه؛ لأن أصل "هل" أن تدخل على الفعل لا الاسم، فإذا عمد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو البليغ الذي درّب على أساليب العرب الفصحاء، وعرف مواضع الكلام وتقاوته بحسب مقتضيات الأحوال، فيضع لكل مقام مقالاً، إلى اختيار الجملة الاسمية لا الفعلية، فهذا يعني أنه أراد دقة التعبير، فعلمه بأن اليهود درجوا على الكذب - حتى لقد كذبوا على ربهم، فقالوا: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ غَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة: 30] - هو الذي استدعى تأكيده على ضرورة الصدق في هذا المقام"⁽²⁾.

وعلى شاكلة حديث البخاري، هناك حديث آخر يرويه الإمام مسلم في قوله صلى الله عليه وسلم للسيدة جويرية زوجته رضي الله عنها وقد دخل عليها، فقال: "هل من طعام قالت لا والله يا رسول الله ما عندنا طعام إلا عظم من شاة أعطيت مؤلاتي من الصدقة فقال قريبي فقد بلغت محلها"⁽³⁾.

هذا، وأن سؤال النبي صلى الله عليه وسلم زوجته رضي الله عنها بعد دخولها عليه، إنما هو من سؤال الأمر للمأمور؛ إذ هو الزوج وهي الزوجة، والموقف موقف طلب، فمن سمات المقام الذي يخرج فيه الاستفهام إلى الأمر أن يكون الطالب في موقع اجتماعي أو غيره، مُتصل أو منقطع، عالٍ بالقياس إلى موضع السامع، وأن يتوافر في ذاكرتيهما المشتركة جملة من الأحداث أو الرغبات، يُمكن أن يطلب تحقيقها على سبيل الاستفهام، وأن الأسلوب المعتاد في مثل هذا الموقف: "أحضري الطعام"، أو "انتي بالطعام"، وفرق كبير بين طلب الطعام بصيغة الأمر، وبين العدول عنه إلى أسلوب الاستفهام، فالأمر في مثل هذا السياق، أمر حقيقي على سبيل الاستعلاء، والأمر يطلب بصيغة تخلو تماماً من مراعاة العلاقة الطيبة بين الزوج والزوجة، علاقة المودة والحب، بل ربما إن ضغط على الفعل "أحضري" في النطق، لأشعر بغضب أو اشمزاز من الزوج على زوجته، أو لأشعر بالاستبطاء في إعادته، أما في العدول عنه بإيثار التعبير بتركيب الاستفهام "هل من طعام"، ففيه إلى جانب الأمر معاني التلطّف في الطلب

1 - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يُعفى عنهم، رقم الحديث: 2998، 3 / 1156.

1- التوبة: 30

2 - بلاغة الاستفهام في الحديث النبوي الشريف، تطبيقاً على مسند الإمام الليث بن سعد، د. عبدالعزيز فتح الله عبدالباري.

3 - أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب إباحة الهدية للنبي صلى الله عليه وسلم ولبنينا هاشم وبنينا المطلب، رقم الحديث: 1073، 2 / 754.

واللّين، ومُراعاة مشاعر الزّوجة؛ ولا سيّما وأنّ السّؤال مُشعّرٌ بعلم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن بيّنه ربّما لا يكون فيه طعام؛ ولذلك سأل عن جنس الطعام، بل هو مُشعّر كذلك برضا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن حاله، وكأنّ مضمون سؤاله: إذا كان عندك أيّ طعام، فأنتي به، وإلا فلا عليك، بخلاف لو خرّج الكلام بصورة الأمر المباشر، فالأمر حينئذٍ لا يُبالي بشيءٍ سوى تنفيذ ما أمر به! (1)، وما استخدمه الرسول الكريم من هذا الأسلوب الخطابي، والتنغيم الذي يصاحب مثل هذه الخطابات اللغوية يدخل في خانة التضامن اللغوي؛ وتطبيق سنة الاستدراج اللغوي؛ قصد فتح القلوب قبل العقول.

وتأسيساً على ما سبق، فإنّ هذا المبدأ الانزياحي المصاحب بالتنغيم الخطابي الهادئ يشاطر الاستراتيجية التضامنية -المعمول بها في المنهج التداولي- في زيادة فضاء التواضع والاستحسان من قبل المرسل والمتلقّي، وإذا ما تمسك الباحثُ بهما لحدّثتْ يَتَمَكَّن من تقليص المسافات والهوّة بين المتكلم والمتلقّي، ويزيد من مساحة الاتفاق بين الجانبين؛ مبتعداً بذلك عن التنافر الخطابي وكل ما يزيد من أصرة الانشقاق بين الجانبين، حتى تتولّد نوعاً من الخطاب يكون أعلاه مثيراً وأسفله مغدقاً، بحيث يكون نهاية الكلام أفضل من صدره؛ لتحقيق أفضل درجة ممكنة من الوظيفة التضامنية، وهذه الأرضية لا تأتي جزافاً وإنما على المرسل اقتناص مفاهيمها، ومن ثمّ ترجمتها في السياق الذي يقتضيه؛ لكي يبلغ الخطاب مقبولية أكثر، والنص المكتوب انقراطية أسرع من قبل المتلقّي؛ وتترجم خلالها الكفاءة الذاتية في أرض الواقع، بحيث يجسّد الشطر الأول من مقولة عامر بن عبد القيس خير تجسيد، حينما يقول: "إنّ الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان" (2).

ومن هنا، بإمكاننا القول إن تجسيد ترجمة مفاهيم التنغيم في ضوء سلطة الدلالة والقراءات التداولية لهذا التنغيم يحتاج إلى توخّي الحيطة والحذر لولادتها في أرض الواقع، فهي ليست مستحيلة الوجود ولكنها نستطيع القول: إنّها محاطة بهالة من شوكة الآليات اللغوية، وهذا ما لا يستطيع فعله كل فرد وإنما بحاجة إلى لاعب لغوي يجيد اللعب بتلك الآليات في مواطنها، ومن ثم خلق تلك البيئة التضامنية.

ويضاف إلى ماسبق، فإنّ الانزياح الأسلوبي من هذه الزاوية تعطي رونق التراكيب بهاءً أكثر في المستوى الخطابي، مولداً جرّاءها الجماليات الأسلوبية؛ وذلك بخروجها عن النمط التقليدي المعروف إلى طابعها الإبداعي، وهذا ما يؤكده العالم اللغوي (تودورف Todorov)؛ حال تقسيمه اللغة إلى ثلاث مستويات في الاستعمال اللغوي؛ مؤكداً " إنّ الاستعمال يكرّس اللغة في ثلاث أضرب من الممارسات: المستوى النحوي، والمستوى اللانحوي، والمستوى المرفوض، وأنّ المستوى الثاني من بين هذه المستويات فيه أريحية اللّغة، و خلالها يسع الإنسان أن يتصرّف فيه" (3). وهذا التقسيم يقرّه معظم اللسانيين المحدثين، ولهذا يريح الإنسان ذوقه اللغوي مع المستوى اللانحوي المقبول في التداولات اللغوية، وأنّ الاستعمال اللغوي هو الذي يصلّ هذه الاستراتيجية ويلبسها طابع الأسلوبية؛ لتحقيق المقصدية التداولية بين طرفي الخطاب خلال العملية التواصلية، وهذا هو عين الهدف من أطر ماهيات الاستعمال اللغوي.

نتائج البحث

وفي النهاية، توصل البحث إلى حزمة من النتائج ولعلّ أبرزها:

1. إن الصعود والهبوط الذي يراود العملية الكلامية هو هويّة الولادة التنغيمية، وجرّاء العملية يولّد التنغيم حزمة من الموسيقيّات الكلامية؛ سواء أكان تلك الموسيقيّة موسيقيّة حزن لتدل على السأم أو الضجر أو التأفف وتكره الأذن سماعه، وبذلك تولّد الرسالة السلبية للمخاطب من لدن المتكلم، أو موسيقيّة الاستراحة أو التطريب لتلهو أذن المتلقّي، وخلالها يريد المتكلم إرسال رسالة إيجابية؛ قصد مشاطرة المخاطب وخلق الاستراتيجية التضامنية.
2. إن انزياح أسلوب الاستفهام إلى التقرير زاحر في الأحاديث النبوية؛ فهذه الانزياحات تخلق فضاءً التفائلياً وتطرية موسيقيّة تحاكي السياقات التواصلية، وتجعل المحاورّة ذا تفاعلات أكثر بين الباحث والمتلقّي، بحيث يجعل من المحاورّة كتلة كلامية واحدة؛ سيّما إذا ما كان الطرفين على مستوى عال بروح اللّغة؛ وهذا لا يستغرب في هذا الجيل.

1 - بلاغة الاستفهام في الحديث النبوي الشريف، تطبيقاً على مسند الإمام الليث بن سعد، د. عبدالعزيز فتح الله عبدالباري.

2 - البيان والتبيين: 83/1.

3 - الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، عبد الحميد هندواي. 2004. ط1. القاهرة: الدار الثقافية: 54.

3. إن التنعيم بالإضافة إلى إعطاء اللمسات الأسلوبية من خلال الإنزياحات الخطابية، فإنه قد رصنت سلطة المرتكزات الدلالية؛ فضلاً عن التداولية بشكل أنصع، ذلك أن اللغة أساس رصين من المنطلق التداولي.
4. إن الانزياح الاختزالي إذا ما حاكى السياق والمقام اللغوي يوّد عنصر المفاجئة والتلذذ اللغوي عند المتلقي، وهذا هو ما ينأشده علم الأسلوب اللغوي، ويوافق عليه علم الدلالة والاستعمال اللغوي.
5. في حدود بحثنا، قد انزاح أسلوب الاستفهام إلى أسلوب الأمر في أحاديث أخرى كثيرة لو تمعنّا السيرة النبوية، والمخاطب يعرف الانزياح من خلال السياق والنعمة المرافقة له؛ أما القارئ فيستشقه من خلال الفضاء العام لبيئة النص وماجريات أمورها.
6. إن المبدأ الانزياحي المصاحب بالتنعيم الخطابي الهادئ يشاطر الاستراتيجية التضامنية -المعمول بها في المنهج التداولي- في زيادة فضاء التواضع والاستحسان من قبل المرسل والمتلقي، وإذا ما تمسك الباثّ بهما لحدتند يتمكن من تقليص المسافات والهوة بين المتكلم والمتلقي، ويزيد من مساحة الاتفاق بين الجانبين؛ مبتعداً بذلك عن التنافر الخطابي وكل ما يزيد من آصرة الانشقاق بين الجانبين، حتى تتولد نوعاً من الخطاب يكون أعلاه مثمراً وأسفله مغدقاً، بحيث يكون نهاية الكلام أفضل من صدره؛ لتحقيق أفضل درجة ممكنة من الوظيفة التضامنية.

المصادر و المراجع

1. أدب الكاتب، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. تعليق: محمد بهجة الأثري، السيد محمد شكري الألويسي.. بغداد: ط1، المكتبة العربية، 1314هـ.
2. استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية الشهري، عبد الهادي بن ظافر... ط1. ليبيا: دار الكتب الجديد المتحدة، 2004.
3. الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، عبد الحميد هنداوي، ط1. القاهرة: الدار الثقافية، 2007.
4. بلاغة الاستفهام في الحديث النبوي الشريف، تطبيقاً على مسند الإمام الليث بن سعد، د. عبدالعزيز فتح الله عبدالباري، ط1، 2011.
5. البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بحر.. تحقيق: شهاب الدين، موفق.. ط2. بيروت: دار الكتب العلمية: 2003م.
6. التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، ط1، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2005.
7. تجديد المنهج في تقويم التراث. طه عبدالرحمن، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2007.
8. الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي الوفاة: 256، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط3، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - 1407 - 1987.
9. الحذف والتقدير في النحو العربي. والنظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية. فاعلية علم اللغة النصي في تحليل معهود الخطاب العربي. رقائق صحيح البخاري نموذجاً.
10. الخصائص، ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، تحقيق: هنداوي، عبد الحميد.. ط2، بيروت: دار الكتب العلمية: 1424هـ- 2003م، 269/3.
11. الخصائص، ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، تحقيق: هنداوي، عبد الحميد.. ط2. بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ- 2003م.
12. دراسة الصوت اللغوي. د أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط4، 2006.
13. دلالة الألفاظ، أنيس، إبراهيم، ط4، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1984.
14. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي الوفاة: 942هـ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض: دار الكتب العلمية - بيروت - 1414هـ، الطبعة: الأولى.
15. سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي الوفاة: 458، تحقيق: محمد عبد القادر عطا: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - 1414 - 1994.
16. سنن الدار قطني: علي بن عمر أبو الحسن الدار قطني البغدادي الوفاة: 385، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يمانى المدني: دار المعرفة - بيروت - 1386 - 1966.

17. شروح التلخيص: مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح؛ لابن يعقوب المغربي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح؛ لبهاء الدين السبكي، نشر أدب الحوزة. رابط الموضوع http://www.alukah.net/literature_language/0/91247/#ixzz5KN2ve6AF.
18. صحيح مسلم بشرح النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الوفاة: 676 ، الطبعة الثانية: دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1392 ، 6 / 156.
19. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري الوفاة: 261 ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي : دار إحياء التراث العربي - بيروت .
20. علم الدلالة ، د. عمر أحمد مختار، ط1 ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، 1982.
21. لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، طبعة جديدة مصححة وملونة، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبدالوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسه التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ=1997م.
22. اللغة العربية مبناها ومعناها، د تمام حسان، دار الثقافة الدار البيضاء 1994 .
23. اللغة، فندريس، جوزيف.. ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص.. القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م.
24. مسند أحمد بن حنبل: 4 / 210، رقم الحديث: 17876، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني الوفاة: 430 ، الطبعة : الرابعة: دار الكتاب العربي - بيروت - 1405 .
25. معجم القاموس المحيط: للفيروزآبادي مادة (نغم) ، طدار الحديث ، القاهرة ، 1429هـ-2008م.
26. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، د. أحمد بن زبير الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.
27. مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ط3. سورية: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 2010.
28. ميزان الاعتدال في نقد الرجال : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي الوفاة: 748 ، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود: دار الكتب العلمية - بيروت - 1995 ، الطبعة : الأولى .
29. النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند،.. ترجمة: د. تمام حسان.. ط2. القاهرة: عالم الكتب، 2007.
30. النقد والإعجاز، دراسة، محمد تحريشي،... اتحاد كتاب العرب-دمشق، 2004، ومتاح على الموقع الآتي: [www.awu-dam.org/ book/ 04/ study04/ 337](http://www.awu-dam.org/book/04/study04/337)